

ذكر الحكم وال عبر في بعض مخلوقات الله تعالى

ذكر الرياح التي يرسلها الله تعالى كما يشاء هذه من آيات الله: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّرًا } فهذه الرياح آية من آيات الله لا يرسلها إلا الله، ولا يوقفها إلا هو. مر بنا أيضاً من آيات الله إنشاء هذه السحب الكثيفة المتراءمة التي تحمل المطر كثيراً أو قليلاً، ويسمع لها هذا الصوت صوت الرعد، ويرى هذا البريق الذي هو البرق آية من آيات الله، لا يقدر على إنشائهما إلا الله، يرسلها إلى ما يشاء. فتارة يحصل بها الغرق، وتارة يحصل بها المطر، وتارة يحصل بها نوع من المطر وإن كان قليلاً، وبصائرها الله تعالى ويرسلها حيت يشاء إلى هذه البلدة والتي إلى جانبها لم يصيدها شيء آية من آيات الله. كذلك أيضاً من بنا الكلام في هذه النجوم التي يسيرها الله تعالى، ويرسلها. يقول الله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْدِيُوا بِهَا فِي طُلُّمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } هذه من فوائداتها. كذلك أيضاً من فوائدتها: معرفة الشتاء والصيف والربيع والخريف، معرفة الأوقات التي يكون فيها برد أو حر أو يكون فيها مثلاً غرس للأشجار أو بذر للبذورات أو ما أشبه ذلك، فيكون فيها أيضاً عبرة لمن تأمل فيها وفي سيرها كما تقدم. هذه مثلاً تسير سيراً حثيثاً، وهذه تسير ببطء، وهذه لا تسير إلا إلى نصف الجو، ثم تتراجع آية وعبرة. وكذلك أيضاً من بنا كلام حول الشمس والقمر، وكيف سخر الله تعالى هذه الأفلاك وسيرها بحيث أن هذه الشمس تطلع كل يوم وتنتهي على ما طلعت عليه، وأن هذا القمر ينbir إذا كان في وسط الشهر نوراً ساطعاً ظاهراً يستضيء به الناس، ويسيرون في ضوئه؛ آية من آيات الله وفيها أيضاً فائدة معرفة الحساب { وَلَعِلَّمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ }. وهكذا أيضاً خلق السماوات والأرض. كيف خلق الله هذه السماوات بهذا الارتفاع، وأخبر بأنها سبع سماوات، وأن كل سماء فوقها أخرى إلى سبع، وكذلك خلق هذه الأرض التي نحن عليها، والتي نشاهد اتساعها ونشاهد ما فيها أيضاً من الآيات. إذا سرت فيها وجدت أو رأيت عجباً تسير وقت طويلاً في أرض صحراء، ثم تنتقل إلى أرض رملية، ثم تنتقل إلى أرض حارة فيها حجارة منبوبة على الأرض، ثم تنتقل إلى أرض جبلية بها جبال واطئه، ثم إلى جبال مرتفعة شاهقة، وكل ذلك في أرض واحدة. لا شك أن هذا أيضاً آية من آيات الله عبرة لمن تذكر واعتبر. وكذلك أيضاً إذا نظرت إلى هذا النبات الذي تنبت هذه الأرض، فينبت كما شاء الله تعالى فثبتت الأرض هذه أعشاشاً لا تنبتها الأرض الأخرى، وينبت في الصيف ما لا ينبت في الشتاء أو ما لا ينبت في الربيع، واللقاء واحد الذي هو الماء، والأم واحدة التي هي الأرض قال الله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًّا وَأَنْهَارًا } وسبلاً لعلكم تهتدون، هكذا مد الأرض وجعل فيها أنهاراً أي: أنهار جارية يجري معها الماء يجريه الله تعالى من مكان لا يعلم به غيره، وبخير تعالى بأن هذه عبرة وموعظة لمن يتعطشه بها ويتذكرة. وإذا تأملنا في هذه المخلوقات عرفنا أن الذي خلقها هو رب العالمين، وأنه ما خلقها عبثاً قال الله تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا يَبْيَهُمَا لَآعْيَنَ مَا خَلَقْنَا إِلَّا بِالْحَقِّ } وقال تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا يَبْيَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ طَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ التَّارِ } الذين يعتقدون أنها خلقت باطلة، أو أنها أوجدت نفسها، أو أن الذي توجد لها الطبائع أو ما أشبه ذلك. هؤلاء هم الخاسرون الذين سلبو عقولهم، أو صرفوا عقولهم إلى أمور تافهة دنيوية لا تسوى من يهتم بها. فتنوّاصي بأن نكثر من التأمل والتفكير في آيات الله وفي مخلوقاته. ورد في حديث ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية من سورة آل عمران: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِ الْأَلْيَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لما أنزلت عليه بكي تلك الليلة حتى أخذل لحيته فسألته عائشة ما هذا البكاء؟ فقال: أنزلت على هذه الآيات التي فيها الأمر بالتفكير وفيها أنها آيات لمن يتفكّر: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولَئِ الْأَلْيَابِ } أي: لأصحاب العقول { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } . ثم قال: ويل لمن قرأهن وهو يعقلهن. يعني: كلما مررت بهذه الآيات فإنك تقرأها وأنت حاضر العقل وأنت متأنل متفكراً فيها، لا تمر عليها وأنت غافل ساه منشغل القلب فإن في ذلك تعرض لهذا الويل. وما أكثر الذين يقرءونها وهم غافلون عنها، أو تقرأ عليهم وتقرع مسامعهم وهم لا يفكرون فيها ولا يتذكرون إذا تفكروا. والآن نواصل القراءة.